مجلة الإحياء، المجلد: 22، العدد: 30، جانفي 2022، ص - ص: 395 – 404
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2406-2588

قضية الإنسان في الدرس التجديدي العقدي عند ابن باديس

The human being question in the renewal creedal lesson of Ibn Badis

سهيلة سعدوني
كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية – جامعة أبي بكر بلقايد
مخبر الدراسات الشرعية
Souhila.sadouni@univ-tlemcen.dz

تاريخ الإرسال: 2021/01/01 تاريخ القبول: 2021/08/17

الملخص:

جاءت الرؤية العقدية الإسلامية شاملة لأبعاد الإنسان التي بها تكتمل حقيقته وصورته، غير أنّنا نجد رؤى موازية معارضة للرؤية الإسلامية، تاهت في تيّارات فكرية وفلسفية تباينت بين الإفراط والتفريط في نظرتها للإنسان، الأمر الذي حمل على ضرورة العودة إلى أصالة الرؤية العقدية الإسلامية للإنسان، فانبرى علماء ومفكّرون في العصر الحديث عُرفوا بالإصلاحيين للتدوين في موضوع الإنسان وبيان حقيقته ومكانته التي خصّ بها، وقد كان الإمام عبد الحميد بن باديس من بين الذين اهتمّوا بالإنسان، حيث جعله الركن الأساس في خطّته الإصلاحية التجديدية، إيمانا منه بضرورة الاستثمار فيه على الأسس التربوية والتعليمية. من هنا جاءت هذه الدراسة التي تطرح التساؤل الآتي: ما هي مظاهر التجديد في تناول مسألة الإنسان كمبحث عقدي تجديدي في الفكر الباديسي؟ ثمّ خلصت هذه الورقة البحثية إلى أنّ مظاهر التجديد في عرض مسألة الإنسان كمبحث عقدي عند الإمام ابن باديس تجلّت في كلّ من الأبعاد النفسية والروحية والعقلية التي تمثّل مقامات الكمال الإنساني عنده.

الكلمات المفتاحية: التجديد؛ الدرس العقدي؛ ابن باديس؛ الإنسان.

Abstract:

The Islamic vision came comprehensive with the dimensions of a human being in which his essence is complete, but we find other opposed intellectual and philosophical visions,varied between excessive and negligent in its view towards man, which requires the need to return to the authenticity of the Islamic vision of man, so the most prominent scholars and thinkers in the modern era whom were known as reformers tried to clarify his truth. Imam Abdel Hamid bin Badis was among those who took care of man, as he made him the cornerstone of his renewal reform plan, believing in the necessity of investing in it on the educational bases, so his view of him came to a realistic view that does not divide its truth and do not abbreviate it in one dimension.

Hence this study came out to the the following question: What are the aspects of innovation in dealing with the issue of human beings as an cree matter in the Badisi's thought? This research paper concluded that the aspects of renewal in presenting the human issues as a doctrinal topic to Imam Ibn Badis were manifested in each of the psychological, spiritual and mental dimensions that represent the positions of human perfection from his point of view.

Key words: renewal; Islamic creedal lesson; Ibn Badis; human being.

مقدّمة:

استوعب الصحابة العقيدة ومسائلها استيعابا يتماشى مع مقاصد النصّ القرآني والحديث النبوّي ووفقا للسان العربي المبين والدلالات الشرعية، وهو الفجّ المسلوك والنهج غير المتروك لتابعيهم وتابعي تابعيهم، ومع توسع رقعة الإسلام ودخول الناس إلى هذا الدين أفواجا، بدأت تبرز على ساحة البيئة العقدية للمسلمين مناظرات بين من يُعرفون بالمتكلمين والفلاسفة وبين خصومهم من الطوائف والديانات الأخرى، تشكّلت هذه المناظرات والمقالات عبر سياق تاريخي وفكري طويل اجتمعت في ما يُطلق عليه اليوم بعلم الكلام الكلاسيكي أو القديم، ذو بعد دفاعي عن طريق الاستدلال، وله معالم موصولة بقضايا المسلمين آنذاك والتي كانت تتعلّق بالأصول العقدية وفروعها.

بالرغم من قوّة هذا الفنّ وسطوته على الصعيد المعرفي الإسلامي، إلّا أنّ الحاجة إليه اليوم أقوى وأكثر إلحاحا، لما يشهده المسلم المعاصر من فتن كقطع الليل مظلمة وشبهات تطعن في عقيدته ليل نهار، ومع ذلك، فإنّ المعطيات الحديثة والتحدّيات المتجدّدة كل آن، لا يرقى إلى التصدّي لها ومواجهتها علم الكلام الكلاسيكي لتغاير مضامينه عن مضامين العصر، ولا نجد فيه مواضيع تُعنى بمسائل عقدية معاصرة كالإنسان والتاريخ والناموس الاجتماعي وسائر المصطلحات المعاصرة التي تفرض أشكلة على مستوى الخطاب العقدي و مستوى البعد الوظيفي العملي لهذه القضايا، فنعجز عن الاستلهام منه ونتوقف عن استصحاب منهجه في الخوض فيها.

من بين أهمّ المواضيع المعاصرة التي ما فتِئت العقول المفكّرة والباحثة تدوّن عنه وتراجعه موضوع الإنسان، انطلاقا من الرؤية العقدية الإسلامية الشاملة لأبعاد الإنسان التي بها تكتمل صورته، فهو وحدة لا تتجزّأ من جسد وروح ونفس وعقل، ومواجهة لرؤى موازية معارضة للرؤية الإسلامية، تاهت في تيّارات فكرية وفلسفية تباينت بين الإفراط والتفريط في نظرتها للإنسان في عصر مضطرب منقلب على عقبيه يعاني من القلق والفوضى الدينية والأخلاقية، الأمر الذي يحمل على ضرورة العودة إلى أصالة الرؤية العقدية الإسلامية للإنسان، فانبرى علماء ومفكّرون في هذا العصر الذي أجملت وصفه وعندكم تفصيله، عُرفوا بالإصلاحيين للتدوين في موضوع الإنسان وبيان حقيقته ومكانته التي خصّ بها، وذلك في إطار بحثي تجديدي للدرس العقدي وفي سياق الفهم والاستيعاب لنصوص الوحيين التي احتوت الإنسان كقضية عقدية.

من بين الذين اهتمّوا بالإنسان رائد النهضة الإصلاحية الجزائرية الإمام عبد الحميد بن باديس، حيث جعله الركن الأساس في خطّته الإصلاحية التجديدية، إيمانا منه بضرورة الاستثمار فيه على الأسس التربوية والتعليمية، فجاءت نظرته إليه نظرة واقعية لا تجزئ حقيقته ولا تختصرها في بعد واحد من الأبعاد المكونة لهذه الحقيقة، بل تشمل جميع ما يكون به الإنسان مثل الفكر والروح والدوافع والاعتقادات والحالات والحقائق النفسية.

من هنا جاءت هذه الورقة البحثية التي تطرح التساؤل الآتي: ما هي مظاهر التجديد في تناول مسألة الإنسان كمبحث عقدي تجديدي في الفكر الباديسي؟ وللإجابة على هذه الإشكالية، قسمت البحث إلى ثلاثة محاور أعرضها كالآتي:

المحور الأول: المدخل المفاهيمي

أولا: مفهوم التجديد

بما أنّ المدخل المفاهيمي في أي دراسة يشكّل خطوة منهجية للانطلاق والتأسيس وبالتالي الإجابة على الإشكالية، لزمني أن أوطّئ لمفهوم لفظ التجديد أولا فأقول: جاء في معاجم اللغة عن مادة "جدد" ما يأتي[1]:

تجدّد الشيء: صار جديدًا، وجدّده، أي: صيَّره جديدًا وكذلك أجدَّه واستجدّه. والجديد هو نقيض الخلق، والجدة ـ بالكسر ـ هي مصدر الجديد وهي نقيض البلى، ويقال: "بلي بيت فلان ثم أجدّ بيتًا من شعر"، ويقال لمن لبس ثوبًا جديدًا: "أبل وأجد واحمد الكاسي".

ومن المعاني اللغوية يمكن القول أنّ التجديد "يبعث في الذهن تصورًا تجتمع فيه ثلاثة معان متصلة لا يمكن فصل أحدها عن الآخر، ويستلزم كل واحد منها المعنى الآخر. أولها: أن الشيء قد كان في أول الأمر موجودًا وقائمًا وللناس به عهد. وثانيها: أن هذا الشيء أتت عليه الأيام فأصابه البلى وصار قديمًا خلقًا. وثالثها: أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق. فقد جاء صريحًا في النقول السابقة أن الجديد نقيض الخلق، وأن الجِدّة نقيض البلى، فيكون معنى جدد الشيء صيَّره جديدًا غير خلق ولا بال. فهذه ثلاثة عناصر: شيء بال وخلق، قد كان غير بال ولا خلق، يجدد بأن يعاد إلى مثل حالته الأولى"[2].

أمّا عن التعريف الاصطلاحي للتجديد الذي نروم به خدمة البحث، فهو يقتضي منّا تقييد اللّفظ بإضافة له وهي الدرس العقدي، وعليه نحصل على التجديد في الدرس العقدي أو بعبارة أوضح و أبسط التجديد في علم العقيدة، ذلك من جهة أنّ مجالات الدين وعلومه التي يدخلها التجديد كثيرة فنجد مصطلح تجديد الدين أو تجديد الفكر الديني، أو الخطاب الديني، أو تجديد أصول الفقه ونظير ذلك، ومن جهة أنّ مصطلح التجديد اكتسب من خلال التداول الموازي المتمثّل في الخطاب الحداثي العام معنى التجاوز أو الإلغاء أو القطيعة، فما هو المقصود بالتجديد في علم العقيدة؟

يعرّف عبد المجيد النجار التجديد في علم العقيدة على أنّه: "تجديد منهج عرض علم العقيدة الإسلامية بحيث تستعمل فيه الأساليب التي تقنع العقلية المعاصرة، وتكافئ في القوة الأساليب التي يستعملها الخصم في الهجوم"[3].

أو يمكننا أن نعرّفه من منطلق بعده الوظيفي وعلته الغائية من خلال سؤالنا لماذا التجديد في علم العقيدة؟ فنقول أنّه درك حقائق العقيدة الإسلامية الثابتة كما جاءت في الكتاب والسنة فكريا وروحيا وعمليا واستيعابها بغية مواجهة غربة الواقع وأزماته ومشكلاته المستحدثة.

قلت فكريا وروحيا وعمليا وأقصد بها مستويات التصوّر والإيمان والعمل وهي مقاربة للجوانب التي شملها الإسلام وهي الإسلام والإيمان والإحسان، كما أردت بغربة الواقع، وأزماته ومشكلاته المستحدثة إجمال ما يعانيه المسلم أولا من عدم تمظهر هذه العقيدة على سلوكه وحياته، وثانيا الشبهات التي تطعن في دينه وعقيدته، لذا كان من الضروري أن نتساءل عند حديثنا عن التجديد في علم العقيدة: هل التجديد فقط من أجل الرد على الآخر أم أنّ المسلم المعاصر هو الذي يحتاج أساسا إلى هذا التجديد؟ وعليه فالتجديد عملية تروم تحقيق إعادة المفاهيم والممارسات إلى وزنها ومكانتها الحقيقيتين، وعملية ترتبط بأهداف وغايات سامية، وليست مجرد عملية لا محرك لها إلّا الاستجابة لنوازع التقليد والمحاكاة والرغبة في التغيير الفارغ.

ثانيا: مفهوم الإنسان بين المتكلّمين وابن باديس

لقد عرف علماء المنطق "الإنسان" بأنه:" حيوان ناطق"، وذلك للدلالة على "المفرد" من الناس، وتمييزه عن غيره من الحيوان، المشارك له في جزء من التعريف، و يمكن أن نلتمس التصوّرات حول مفهوم "الإنسان " في إطار علم الكلام الكلاسيكي التي تشكلت في سياق تباين الأنماط المعرفية عند الفرق الإسلامية كالتصوّر الفلسفي والروحي والمنطقي، أمّا في العصر الحديث فقد تشكلت تصوّرات منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى يومنا في سياق المعطى القرآني الذي يحدّد لهذا الإنسان دوره الحضاري ومكانته في الكون، وكان لمفكري الحركات الإصلاحية التجديدية المعاصرة الدور الكبير في تقديم هذه الصورة حول مفهوم "الإنسان " التي انبثقت من خلال الأطروحات الفكرية المرتبطة بسياق المشروع الإصلاحي، من بينهم عبد الحميد بن باديس.

أ- الإنسان عند المتكلّمين: ساق أبو الحسن الأشعري مقالات للمتكلمين وغيرهم في الإنسان، وكانت جميعها تدور حول استطاعة الإنسان ومقدرته على فعل الفعل ومتعلّقات هذه المسألة التي أخذت حظّها من الجدال والمناظرة بين الفرق الإسلامية قديما وحديثا، ولعلّنا نقتصر على بعض منها تلك التي تباينت فيها الآراء وتضارب النظر فيها إلى الإنسان وهي كالآتي[4]:

- إنّ البدن هو الإنسان وأعراضه ليست منه وليس يجوز إلا أن يكون فيه عرض من الأعراض.
- الإنسان جسد وروح وأنهما جميعاً إنسان.
- الإنسان اسم لمعنيين لبدن وروح، فالبدن موات والروح هي الفاعلة الحسّاسة الدرّاكة دون الجسد وهو نور من الأنوار.
- وقال النظّام: الإنسان هو الروح ولكنها مداخلة للبدن مشابكة له وأنّ كل هذا في كل هذا وأنّ البدن آفة عليه وحبس وضاغط له.
- وكان ابن الراوندي يقول: هو في القلب وهو غير الروح والروح ساكنة في هذا البدن.
- وقال أصحاب الطبائع: الإنسان هو الحر والبرد واليبس والبلة اختلط بهذا الضرب من الاختلاط وكذلك سمعه وسائر حواسه وكذلك جثته ولحمه ودمه وجميع هذه الأمور هي الإنسان.

يلاحظ من تعريفات بعض المتكلّمين والفلاسفة للإنسان اختلافهم وتباينهم، فاختزل بعضهم الإنسان في البدن فقط دون باقي المكوّنات، في حين ذهب آخرون إلى أنّ الإنسان يكون إنسانا بالجسد والروح معا لا غير، ويراد بالإنسان عند النظّام الروح دون الجسد، واختلافهم في ماهية الإنسان مبني على اختلافهم في متعلّقاته التي هي الروح والنفس والحياة[5]:

- قال النظّام: "الروح هي جسم وهي النفس وزعم أن الروح حي بنفسه...".
- وقال قائلون منهم جعفر بن حرب: "لا ندري الروح جوهر أو عرض واعتلوا في ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85] ولم يخبر عنها ما هي لا أنها جوهر ولا أنها عرض ...".
- وكان الجبّائي يذهب إلى أن الروح جسم وأنها غير الحياة والحياة عرض ويعتل بقول أهل اللغة: خرجت روح الإنسان فزعم أن الروح لا تجوز عليها الأعراض.
- وقال قائلون وهم الطبائعيون: "ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع ولم يرجعوا من قولهم اعتدال إلا إلى المعتدل ولم يثبتوا في الدنيا شيئاً إلا الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة".
- وكان الأصم لا يثبت الحياة والروح شيئاً غير الجسد ويقول: "ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذي أراه وأشاهده وكان يقول: النفس هي هذا البدن بعينه لا غير وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد لحقيقة الشيء لا على أنها معنى غير البدن".
- وقال آخرون: النفس معنى غير الروح والروح غير الحياة والحياة عندهم عرض ومنهم أبو الهذيل، وزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان في حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة واستشهد على ذلك بقول الله -عز وجل-: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42].

من خلال ما سبق ذكره من أقوال المتكلمين والفلاسفة، نجد أنّهم اختلوا أولا في الروح هل هي جسم أم جوهر أم عرض، ثمّ هناك من جعل الروح والنفس بمعنى واحد، وهناك من ميّز بين الروح والنفس والحياة، وآخرون أنكروا كلّ شيء إلاّ الجسد وهم الطبائعيون في اصطلاح المتكلّمين والفلاسفة وفي اصطلاحنا المعاصر هم الماديون.

ب- الإنسان عند عبد الحميد بن باديس: ينطلق الإصلاحيون في تصوّرهم للإنسان من القرآن الكريم ذلك أنّ " الإسلام بتكاليفه وأحكامه خاطب "الإنسان" من دون فصل أو تقسيم، معتبرا إياه شيئا واحدا، فلم يخاطب فيه جانبا دون الآخر ولم يعامله على أنه جسم حيّ متحرّك كسائر الحيوان، ولا على أنه لطيف مجرد كالملائكة.، بل وجّه إليه الخطاب بالتكليف، باعتباره إنسانا متكاملا، وخاطبه بالترغيب والترهيب، اختبارا لحوّاسه ومواهبه وعقله، وأخبره بأنه إن أحسن فلنفسه، وإن أساء فعليها، وبأنّ المؤمن سيدخل الجنّة بجسده وعقله وروحه، وكلّ حواسّه، وأنّ الكافر سيدخل النار كذلك[6].

وقد استمد ابن باديس هذه النزعة الإنسانية من التصور القرآني للحقيقة الإنسانية، تلك الحقيقة التي احترمت الكائن البشري، وأولته الدرجة الأولى من الكرامة وأوضحت للناس أجمع أن بني الإنسان من طينة واحدة، وأن هذه الطينة أو تلك الطبيعة تتساوى فيها جميع الأجناس[7].

ماهية الإنسان عند ابن باديس ذات مكوّنة من جزئين يتصارعان أبدا، ويخلقان حالتي رقي وانحطاط متموجتان بفعل عوامل تتعلّقان بكلتا الحالتين، إذ يقول:" إنّ الإنسان بجزئه الترابي، وهو بدنه- مخلوق أرضي، وبجزئه النوراني- وهو روحه- مخلوق سماوي، فإذا جذبه جزؤه الترابي بزمام الشهوة إلى السفليات الأرضية، طار به جزؤه النوراني على بساط العقل إلى علويات السماء، وهو لن يزال دائما بين هذا وذاك في انحطاط واعتلاء"[8].

فماهية الإنسان عنده تماهي الوجود البدني الذي هو من تراب بالوجود الروحي الذي هو من نور، وبينهما يكون الإنسان أرضيا بفعل الشهوات وسماويا بفعل العقل. ومنه نستنتج أنّ الشهوة والعقل محرّكان ودافعان للإنسان يحملانه على الصنيع المنحطّ أو الصنيع الراقي. يقول في الجسد والروح مبيّنا علاقة التماهي والتشاكل بينهما: "فالجسد آلة بديعة للروح لازمة لها في الدنيا وملازمة لها في الأخرى، فمن العدل الإلهي أن يكون لها حظها هنالك، كما كان لها حظها هنا، ومن العدل الواجب على الإنسان أن يعطيها- كما يعطي الروح- حقها من الاعتناء..."[9].

ومن مكوّنات الإنسان عند ابن باديس العقل، وهو إذ يتحدّث عن العقل في كتاباته لا يريد به مجرّد الآلة وإنّما يريد متعلّقات هذه الآلة من قدرات على الفهم والتفكير والتحليل من خلال قوّة الإدراك الابتدائي الإجمالي الذي خلقه الله به، وهو عنده من ماهية الإنسان فنجده يقول: "... ولكن الإنسان يمتاز عن الحيوان بقوة التحليل والتركيب لكل ما يصل إليه حسه وإدراكه، وتطبيق ذلك على كل ما تمتد إليه قدرته ويكون في متناول يده. فمن ذلك التركيب والتحليل والتطبيق تغلّب على عناصر الطبيعة وتمكّن من ناصيتها واستعمل حيوانها وجمادها في مصلحته ورقي أطوار التقدم في حياته، ولفقد الحيوان غير الإنسان هذه القوة بقي في طور واحد من حياته ومعيشته. فإدراك الحيوان فطري إلهامي يُعطاه من أول الخلقة، والإنسان يعطى أصل الإدراك الإجمالي، ثم بتلك القوة يتسع أفق إدراكه ويستمر في درجات التقدم وهذه القوة التي يمتاز بها الإنسان هي العقل. وهي التي ساد بها هذا العالم الفاني"[10].

نستفيد من قوله أنّه ميّز بين إدراكين: إدراك فطري إلهاميّ خاصّ بالحيوان وإدراك أصليّ إجمالي منحه الله تعالى للإنسان، ومن منطوقه نصل إلى أنّ الإنسان يطوّر إدراكه بقوّة العقل الذي هو آلة ليرتقي بإدراكه من درك الحياة البهيمية إلى درج المعالي الإنسانية، و يؤكّد هذا المعنى قوله: "ولمّا امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير- امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته، فمن المشي على الأقدام إلى التحليق في الجو، مثلاً، وبقي سائر الحيوان على الحال التي خلق عليها دون أي انتقال"[11].

القارئ لأقوال ابن باديس عن الروح والنفس، يجد أنّه لا يميّز بينهما إلاّ فيما يتعلّق بالحاجيات الغريزية والضرورات الإنسانية التي تحافظ على بقاء النوع، فالروح:" كريمة الجوهر لأنها من عالم النور، فقد خلقت من نفخ الملك كما في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - الثابت في الصحيح (...) وإنها كريمة الخلقة أيضاً لأنها فُطِرت على الكمال، ولذا أضافها الله تعالى إلى نفسه في معرض الامتنان في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾، دع ما يطرأ عليها بعد اتّصالها بالبدن من تزكية ترقى بها في معارج الكمال أو تدسية تنحط بها إلى أسفل سافلين، وبعد ارتباطها بالبدن يتكون منهما المخلوق العظيم العجيب المسمّى الإنسان"[12].

فالأرواح والنفوس عنده من جهة حقيقتها بمعنىً واحد وهي جواهر وليست أعراض أو أجسام خلافا للمتكلّمين والفلاسفة، كما أنّها هي الحياة فبدونها لا يكون الإنسان إنسانا وإنّما جثّة ساكنة هامدة، يقول: "هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلاً قطعياً وكلية عامة في

الدين..."[13]، ولكن في المقابل يذكرها ويقصد بها النفس الغريزية بمعنى الشهوة فيقول: "العبد بين داعيين مختلفين دينه يدعوه إلى الحسنى وينهض به للعلاء ونفسه تدعوه إلى السوأى وتنحط به إلى الحضيض. ولا ينحط المسلم عن مقامات الكمال إلا بإجابته داعي نفسه وإعراضه عن داعي دينه. فالنفس هي الجاذب القوي إلى دركات الانحطاط (...) وفي هذا تنبيه له على أن النفس هي المعرقلة للعبد عن الصعود في سلم السعادة وأنه إذا قهرها وغلبها فقد تيسرت له أسباب الكمال"[14].

المحور الثاني: التجديد في الدرس العقدي عند ابن باديس

اهتم الإمام عبد الحميد ابن باديس بالعقيدة، وأعطاها مكانة خاصة بحكم الظروف التي عاشها الشعب الجزائري آنذاك، فلقد حاول الاستعمار العمل على توهين عقيدة الجزائريين، وعلى تغلغل عقائد الخرافة والدجل؛ التي تجعل الشعب مستسلما للواقع، يائسا من التغيير، فاقدا للأمل في ربه. ورأى الإمام أنّ أولى الجوانب بالرعاية والمكانة هو الجانب العقدي، يقول رحمه الله: "وقد كانت وجهتنا الأولى في النقد الديني هي الاعتقادات، ولقد كان همنا الأول تطهير عقيدة التوحيد من أوضار الشرك القولي والفعلي والاعتقادي، فإنّ التوحيد هو أساس السلوك، ولذلك ابتدى بـ "إياك نعبد" قبل "اهدنا" في فاتحة القرآن الكريم"[15].

كما أراد الإمام أن يبتعد بالناس في جانب العقيدة عن علم الكلام وعن الطرح الفلسفي المغرق في مصطلحات لا تستوعبها أفهام العامة ولا تؤثر في سلوكاتهم فارتأى أنّ أسهل خطاب يحدث أثرا في النفوس هو الخطاب القرآني الذي لا يملّه سامعه، ولا يصعب على متلقّيه، ولذلك جاء في تفسيره مجالس التذكير قوله: " أمّا الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله، وتصعيب طريق العلم إلى عباده، وهم في أشد الحاجة إليه " ثم يقول: "بَسَط القرآن عقائد الإيمان كلَّها بأدلَّتها العقلية القريبة القاطعة، فهجرناها وقلنا: تلك أدلَّة سمعية لا تحصِّل اليقين، فأخذْنا في الطرائق الكلامية المعقَّدة، وإشكالاتها المتعدِّدة، واصطلاحاتها المحدثة، مِمَّا يصعِّب أمرها على الطلبة فضلًا عن العامَّة"[16].

دعا أيضا إلى إعادة النظر في المقررات العلمية التي كانت تدرس في المعاهد الدينية عموما ومقررات العقيدة على وجه الخصوص، ولم يكتف بالدعوة إلى ذلك بل مارس عملية التجديد علميا وعمليا، تأليفا وتدريسا، وبمعاضدة إخوانه وتلاميذه انتشرت المدرسة الإصلاحية ذات المرجعية السلفية المخالفة في كثير من النواحي عن المدرسة الأشعرية[17].

فالقارئ لخطابه العقدي لا يصعب عليه كشف المنهج العام في تجديده للدرس العقدي، فهو قد ركّز على عملية ربط العقيدة بمصادرها الأصلية القرآن والسنة وجعل هذا الربط لازم من لوازم تحرير العقل، ولم يقف عند حدّ التصورات العقدية والإيمانية بل اهتمّ كذلك بالممارسة العقدية وأثرها على الفعل والسلوك.

المحور الثالث: مظاهر التجديد في عرض موضوع الإنسان عند ابن باديس

بيّنا من خلال عرض بعض الأقوال في الفكر الكلامي أنّ مفهوم الإنسان لم يتعدّ كونه كائنا حيّا مكوّنا من بدن وروح مع تباين واختلاف في ماهية هذه الروح وتعلق الحياة بها، ثمّ عرضنا بعد ذلك أقوال العلامة عبد الحميد ين باديس في ماهية الإنسان وحقيقته، وكيف أنّه يصوّره انطلاقا من تصوير القرآن له، فهو ذات مكونة من ثلاثة أجزاء: بدن ترابي وروح نورانية وعقل يدرك به الأشياء.

من هذا المنطلق المفاهيمي واستنطاقا لأقواله في ما يتعلّق بالإنسان في إطار خطته الإصلاحية، يمكن تجلية مظاهر التجديد في عرض قضايا الإنسان خدمة لمشروعه الإصلاحي كالآتي:

1- الاهتمام بالتفكير والدعوة إلى إعمال العقل

يكثر ابن باديس الحديث عن العقل والتفكير ومتعلّقاتهما، وكنا قد بينا في السابق أنّ العقل في الإنسان عنده مجرّد آلة والإدراك هو القوّة التي خُلق بها وهو يطوّرها ليرتقي بها، غير أنّنا نجد مفهوما آخر للعقل يعرّفه بأنّه القوّة الروحية عند الإنسان، في معرض حديثه عن العلاقة بين التفكير والاكتشاف يقول: "وعقله هو القوة

الروحية التي يكون بها التفكير، وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها، وأدرك نسب بعضها لبعض إيجاباً وسلباً وارتباط بعضها ببعض نفياً وثبوتاً، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول. فالتفكير اكتشاف المجهولات من طريق المعلومات، والمفكر مكتشف ما دام مفكراً"[18].

يشير ابن باديس إلى أهمية التفكير بالنسبة للإنسان، فالإنسان إنسان إذا فكّر من أجل أن يكتشف المجهول ويعمل على تسخيره وتوظيفه لصالحه، يقول: " وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها- تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول وقسمي العلوم والآداب..."[19].

يستعمل ابن باديس دلالة التلازم العقلي بين شيئين أو أكثر وهو ما لا يتصوّر العقل انفكاكه ليقرّب الصورة إلى أذهان المتعلّمين، ويدفعهم إلى العمل بمقتضى التصوّر الذهني. يقول في هذا الصدد: "وللفكر الإنساني عمل سابق لأعمال الجوارح المجترحة وسائق لها ومهيئ لما يظهر أنه من بدواتها، وهذا العمل الفكري تظهر قوته في نواح منها- وأهمها- التمييز بين الخير والشر وأدق منه التمييز بين خير الخيرين وشر الشرّين، فإنّ الخير درجات وأنواع، والشرّ كذلك دركات وأنواع"[20].

نلاحظ أنّه يوظّف دلالة التلازم وهذه المرّة بين الفكر وعمل الجوارح فهما لا ينفكّان بحال، غير أنّ الفكر سابق للجوارح وسائق لها، وبذلك يكون فعل الخير ونقيضه فعل الشرّ ناتجا عن إعمال العقل الذي هو التفكير. فهو يقرّر حقيقة قرآنية مفادها أنّ ما يفكّر به الإنسان نابع عمّا يعتقده وهو المحرّك الرئيس لسلوكه وأفعاله، يقول: "سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً، يستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه ويعقم بعقمه، لأنّ أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره. وهذه الإدراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة في القوة والضعف، فمنها ما هو قويٌّ معتبر، ومنها ما هو ضعيف ساقط عن الاعتبار..."[21].

وبهذه الأمثلة من نصوص العلامة ابن باديس يتّضح لنا أنّه ما فتئ يستخدم دلالة التلازم العقلي واللفظي كي يحمل الناس على إعمال عقولهم، وهي دعوة جاء بها الإسلام ففي القرآن الكريم آيات كثيرة " تدعو إلى إعمال العقل والتفكير في ملكوت الله وخلق الإنسان؛ ليصل بذلك إلى الإيمان بالله وقدرته وإبداعه ووحدانيته، وتدرج في هذا الخطاب بما يناسب عقلية العرب وتصوراتهم والمحسات المتعلقة بحياتهم؛ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)﴾ [الغاشية: 17-20]، ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)﴾ [عبس: 24-32]"[22].

2- بيان أهمية الوقت في حياة الإنسان والحرص على استغلاله

من مظاهر التجديد في قضية الإنسان عند عبد الحميد بن باديس، مظهر تجلّى في اهتمامه الكبير بمسألة الوقت والفراغ، والتي يعدّها من أهمّ الأمور وأخطرها التي عادة ما يتغافل عنها المسلمون، وهذا الطرح يفتقده الدرس الكلامي الكلاسيكي، وكذلك كثير من أطروحات المجددين، يقول عن الوقت: " عمر الإنسان أنفس كنز يملكه، ولحظاته محسوبة عليه وكل لحظة ثمرة معمورة بعمل مفيد، فقد أخذ حظه منها وربحها، وكل لحظة تمر فارغة، فقد غبن حظه منها وخسرها (...) فالرشيد الرشيد من عمر وقته بالأعمال، وداوم على استعمال ذاته فيها فربحهما، والسفيه السفيه من أساء التصرف فيهما فأخلى وقته من العمل، وعطل ذاته عن الشغل فخسرها"[23].

فالوقت من أهمِّ النِّعم التي أنعم الله بها علينا، ولأهمية الوقت أقسم الله في القرآن الكريم به - وهو الغني عن القسم - عدةَ مراتٍ؛ بالفجر، والضحى، والعصر والليل... و من المعروف لدى المفسِّرين أن الله إذا أقسم

بشيء مِن خلْقِه، فذلك ليلفتَ أنظارَهم إليه، وينبههم إلى جليل منفعته. وقد كثر الحديث اليوم عن فنّ إدارة الوقت وعن الوسائل التي تُعِينُ المرءَ على الاستفادة القصوى من وقته في تحقيق أهدافه، والاستفادةُ من الوقت هي التي تحدِّد الفارقَ ما بين الناجحين والفاشلين في هذه الحياة، فالسِّمةُ المشتركة بين كل الناجحين هي قدرتُهم على الموازنة ما بين الأهداف التي يرغبون في تحقيقها، والواجباتِ اللازمة عليهم، وهذه الموازنةُ تأتي من خلال إدارتهم لأوقاتهم[24].

وقد سلك ابن باديس نهج القرآن في بيان أهمية الوقت وخطورة تضييعه واغتنام هذا المورد العظيم الذي زوّدنا الله به، وفي هذا الأصل يقول ابن باديس:" "كل فرد من أفراد بني الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته لا ينفك عن المداخل والمخارج فكل ساعة يقضيها من حياته هي مدخل باعتبار دخوله فيها من غيرها ومخرج باعتبار خروجه منها إلى سواها. فإن قضاها صادق العقد صادق القول، صادق العمل وفارقها كذلك فهي مدخل صدق ومخرج صدق. وإن قضاها وفارقها سيء العقد سيء القول سيء العمل فهي ليست كذلك بل هي مدخل كذب وفجور ومخرج كذب وفجور..."[25].

ولا شك أن العاقل يجب عليه أن يستحضر نهايته، ويفكر في مستقبله، ويتذكر عاقبة أمره، فيستغل زمانه في كل شيء يعود عليه بالمصلحة في دينه ودنياه، ولا يفرط في لحظة من لحظات عمره بإضاعتها فيما لا فائدة فيه، فالوقت كما يقول الاقتصاديون مال، وتقدّم أي أمّة لا يتأتّى إلاّ باستغلال كل لحظة من حياتها استغلالا يكون في مصلحة هذا التقدّم والتطوّر، وإلّا كان الوقت صفقة ضائعة تعود بالوبال والحسرة على الإنسان الفرد حاملا وزر تخلّف مجتمعه.

3- بيان علاقة الغذاء الصحي بالسلوك عند الإنسان

لقد تنبّه ابن باديس للرابطة التي تجمع الغذاء الصحي والعناية الجسمية بالسلوك الفردي والتنمية المجتمعية، وهذه سابقة لم يتفطّن لها خلق كثير ممّن دوّنوا في مجال الإصلاح والتجديد، يقول في هذا الصدد: "يتوقف هذا البدن وصلاحه على الغذاء، وقد جعل الله فيه وعاء، وأي وعاء، وهو المعدة، مخزن الغذاء وبيت الداء، وعلى حفظ نظام هذا الوعاء تترتب الصحة والمرض والسقم والشفاء. فإذا ملأ ابن آدم بطنه كان عليه شر وعاء، وانبعثت منه شر الأدواء: أسقام للبدن وأثقال على الروح وظلمات للعقل، فانقلب على الإنسان مع انتفاعه به إلى أصعب الشر وأقسى البلاء. وإذا اقتصر على أكلات تقيم الصلب وتمسك البدن حصل من البدن على العمل، وسلم من آلام المرض، ونعم بالعافية، وكان انتفاعه بالآلة البدنية خالصا من شوائب الضرر"[26].

فالغذاء الجيد للأفراد ينعكس على المجتمع بكامله، فمّما لا شك فيه أنّ مجتمعًا يعاني أفراده من سوء التغذية لا يكون عطاؤه عطاء جيدا، بل على العكس تكون الإنتاجية فيه متدنية ولا يمكنه أن يحقق التنمية المنشودة لا في الحقل الاقتصادي ولا الاجتماعي ولا التصنيعي أو التربوي والتعليمي[27].

يقول أيضا: "تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، (...) وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنّه هو الذي يثمرها، لأنّ الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن فتصلح الأعمال كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الأعمال"[28].

وإنّنا نقرأ ونشاهد حديث علماء التغذية والأطباء في عصرنا الحالي عن علاقة التغذية السليمة بالسلوك الإنساني وتأثير تناول السكريات مثلا على وظيفة الدماغ وعلى الهرمونات التي تساعد الدماغ على التركيز والحفظ والتحليل وغيرها من القدرات العقلية، وهذا ما أولاه ابن باديس العناية الكاملة في كثير من كتاباته ضمن مشروعه الإصلاحي في سياق التجديد في العرض والطرح. ولعلّ ما يلخّص ما سلف ذكره قوله رحمه الله تعالى: "حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث: الإرادة والفكر والعمل، وهي المذكورات في هذه الآية، لأن التذكر بالتفكر والشكر بالعمل. فاستفادة الإنسان مما خلقه الله له وجعله لأجله لا تكون إلا بهذه الثلاثة، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لا بد للإنسان منها، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح، والإرادة القوية

من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم، فلهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه وبدنه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوي ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل"[29].

خاتمة:

نخلص ممّا سبق إلى أنّ الإمام عبد الحميد ابن باديس طرح قضية الإنسان كمبحث عقدي مستنبط من الكتاب والسنة، وبادر إلى توسيع مفهوم ومدلول مصطلح إنسان ليستغرق جميع متعلّقاته النفسية والروحية والأخلاقية، ويشمل ما يكون به الإنسان إنسانا من القضايا القيمية والحضارية وهكذا تم التركيز في مشروعه الإصلاحي على جدلية العلاقة بين الحضارة والإنسان عبر مجسّات خاصة تبحث في كيفية بناء إنسان متكامل الأجزاء في وحدة ذاتية تناقض التخلّف الفكري والسلوكي وتحدّ من سطوته، فالتقدّم عن ابن باديس لا يتأتى بعيدا عن إصلاح الفرد وصلاحه، وهذه هي الطريقة الأمثل لنقل الفرد والمجتمع من أجواء العبثية والتشرد والضياع، إلى أجواء أكثر حداثة وتطورا. حتى إنك إذا نظرت في القرآن الكريم تكاد بأن تجزم أنّ القرآن كلّه إنّما جاء يعالج قضية الإنسان، والطريق الصحيح الذي يسلكه الإنسان، والطريق المعوجة التي يُحذّر الإنسان منها، إلى غير ذلك، وهذا النهج المسلوك والفجّ غير المتروك الذي دأب عليه ابن باديس طيلة حياته ولم يعيي بذلك، رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الجوهري، الصحاح، ت أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ-1987م.

2- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

3- ابن فارس، مقاييس اللغة، ت عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ -1979م.

4- عمار الطالبي، آثار ابن باديس، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1، 1388 هـ،1968م.

5- الأشعري، مقالات الإسلاميين، ت زرزور،المكتبة العصرية الطبعة: الأولى، 1426هـ - 2005م.

6- بسطامي محمد سعيد، مفهوم تجديد الدين، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدّة، ط1، 1433هـ،2012م.

7- خليفي الشيخ، منهج التجديد في علم الكلام عند عبد المجيد النجار، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- مجلد 32، العدد2، 13-12-2018.

8- محمد أحمد كنعان، أزمات الشباب أسباب وحلول، نسخة الكترونية، د. ط.

9- عمار الطالبي، النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس، مجلة الأصالة العدد7، السنة 2، صفر ربيع الأول 1392هـ، ماي أفريل 1972م.

10- عمراني بلخير، الخطاب التجديدي في فكر الإمام عبد الحميد ابن، بتاريخ: 15 كانون1/ديسمبر 2016 مقال على موقع crsic.

11- محمد حاج عيسى، الإصلاح العقدي في دعوة ابن باديس وأثره على المجتمع الجزائري، موقع ابن باديس، https://binbadis.net/archives/3821

12- مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 48،47، الشاملة https://al-maktaba.org/book/4473/10354

13- عيد محمد شبايك، الإسلام وفنّ إدارة الوقت، شبكة الألوكة، https://www.alukah.net/culture/1085/9455/

14- عبد الرجمن مصيقر، الغذاء والتغذية، أكاديميا، نسخة الكرتونية، د.ط.

الهوامش:

[1]- الجوهري، الصحاح، ج2، ص454، ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص111، ابن فارس مقاييس اللغة، ج 1، ص409.
[2]- بسطامي محمد سعيد، مفهوم تجديد الدين، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، ط1، 1433هـ،2012م، ص 14،13.
[3]- عبد المجيد النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، ص23، نقلا عن خليفي الشيخ، منهج التجديد في علم الكلام عند المجيد النجار، مجلة جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، مجلد 32، العدد 13، 2018م.
[4]- ينظر الأشعري، مقالات الإسلاميين، ت زرزور، المكتبة العصرية، ط1، 1426ه،2005، ج2، ص252.
[5]- ينظر مقالات الإسلاميين، المرجع السابق، ص 254- 255- 256.
[6]- محمد أحمد كنعان، أزمات الشباب أزمات وحلول، نسخة إلكترونية، د.ط، ص18.
[7]- عمار الطالبي، النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس، مجلة الأصالة العدد7، السنة 2، صفر ربيع الأول 1392هـ، ماي أفريل 1972م نقلا عن موقع ابن باديس https://binbadis.net/archives/2544
[8]- عمار الطالبي، آثار ابن باديس، ج2، ص 117.
[9]- المصدر نفسه، ج2، ص 117.
[10]- عمار الطالبي، آثار ابن باديس، المصدر نفسه، ج2، ص 22.
[11]- المصدر نفسه، ج1، ص 267.
[12]- المصدر نفسه ج1، ص 251.
[13]- آثار ابن باديس، مصدر سابق، ج1، ص 251.
[14]- المصدر نفسه، ج2، ص 281.
[15]- عمراني بلخير، الخطاب التجديدي في فكر الإمام عبد الحميد ابن، مقال على موقع crsic بتاريخ 15 ديسمبر2016، تمّت قراءته يوم 16 مارس 2020- 09:43.
[16]- عمراني بلخير، المرجع السابق.
[17]- محمد حاج عيسى، الإصلاح العقدي في دعوة ابن باديس وأثره على المجتمع الجزائري، موقع ابن باديس، https://binbadis.net/archives/3821
[18]- آثار ابن باديس، ج1، ص 267.
[19]- المصدر نفسه، ج1، ص 267.
[20]- آثار ابن باديس، ج1، ص 106.
[21]- المصدر نفسه، ج1، ص 269.
[22]- مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 47،48، ج21، ص 353، الشاملة https://al-maktaba.org/book/4473/10354
[23]- آثار ابن باديس، ج1، ص174.
[24]- عيد محمد شبايك، الإسلام وفنّ إدارة الوقت، شبكة الألوكة، https://www.alukah.net/culture/1085/9455/
[25]- آثار ابن باديس، ج1، ص 321.
[26]- المصدر نفسه، ج2، ص 178.
[27]- عبد الرجمن مصيقر، الغذاء والتغذية، أكاديميا، نسخة الكترونية، د ط، ص 26.
[28]- آثار ابن باديس، ج1، ص 365.
[29]- المصدر نفسه، ج1، ص 433.